

بصمات المقدّس في الكتابات الأدبية

نموذج عملي:

ألف عام وعام من الحنين لرشيد بوجدرّة

احميّدة بن براهيم
جامعة جيلالي ليايس
سيدي بلعباس، الجزائر



إن كتابة "غير المقدّس" (الرواية) تُبدي "ظواهرياً" رابطة ما مع الكتابة المقدّسة. لعله يكون سببا كافيا لافتراض أنّ الكتّابتين قد تكونان إمّا من نفس المصدر وإمّا إلى نفس المآل.

في رواية "الف عام وعام من الحنين" للروائي رشيد بوجدرّة، تستدعي الشخصيات والمكان والأفعال كلّها، في قراءة دقيقة، بعضاً من العناصر الأساسية من أدبيات المقدّس.

*
*

تراثية مثل مسعودة ذات الشخصية المتعدّدة الأوجه والرموز، وكذلك إبراهيم والفداء في روايات الكتب المقدّسة : القرآن والإنجيل والتوراة، إبراهيم القرآني وإبراهيم التوراتي، وشخصية سليمان والمعبّد، والسلف المقدّس، وعلى الخصوص شخص محمّد عديم القلب الذي هو شخصية محورية مع مسعودة، ويسرد الكاتب كلّ الأسماء المشتقة من محمّد كأحمد وحامد... إلخ، وشخص أخرى مثل مليكة وكلّ الأسماء المسجوعة على وزنها باستعمال القلب والتصنيف، وحتى الأرقام لها وظيفتها الرمزية مثل الرقم 19 فعدد أبناء مسعودة 19 أخوة وأخوات، تسعة أخوة

و أخذاً بعين الاعتبار لشروط إنتاج النصّ - الأصل الثقافي للكاتب، الظرف "التاريخي" للرواية ذاتها - فالتأويل الأوّل سوف يكون في مجال المقدّس الإسلامي (*). وبناءً عليه، وخاصة بما يتعلق بزمان ومكان الحوادث والروابط الأسرية للشخصية ؛ تؤول - تأويلاً - فحسب - الشخصية الروائية الرئيسة محمّد "عديم القلب" S.N.P. إلى الشخصية التاريخية المقدّسة للنبي محمّد (صلعم).

يلاحظ الباحث وجود بعض الوحدات السردية في الرواية تتناص مع وحدات سردية في الكتب المقدّسة وكتب التراث. وعلى مستوى الشخصوس: فإن الرواية غنية بأسماء

الأساطير الممكنة توظيفها، وتصوير شخصها، وكذا المكان والزمان، من خلال الإشارة إلى أن المجتمع الذي تصوره الرواية هو المجتمع العربي في الخليج بالذات، مع أول بروز للطفرة البترولية، يدل على توجه الروائي إلى قارئ يفترض أنه قرأ التراث العربي بعمق بل وحتى التراث العالمي لإقناعه بأن ما سيحدث في المستقبل، إنما يحدث الآن، وبأن ما سيحدث الآن يشبه ما تحدث عنه الكتب المقدسة، التي تلجأ هي بدورها للترميز وتخضع للتأويل ليظل نصّها متجدداً عبر العصور، وبناء عليه كان هدف السرد هو استبدال ما يحدث بما سيحدث، أي استبدال الواقعي بالخيال.

وردت القصص في القرآن الكريم لتقديم الموعظة والاعتبار بما حدث للأقوام السابقة، لذا تميزت هذه القصص بأنها أقرب إلى الأخبار والتاريخ منها إلى القصة الفنية، ومال السرد القرآني، نتيجة لذلك، إلى الإيجاز والتكثيف، وعدم الإطالة. أما السرد الروائي فقد عني بالتفصيلات، ورصد تفاصيل الحدث بدقة، معتمداً في ذلك الخيال الذي مد الأحداث بالحركة، وولد أحداثاً جديدة، وأفعالا سردية أخرى^(*).

وتسع أخوات كلّ أخت لها أخ توأم، إلّا محمد عديم اللقب فقد وُلد لوحده دون أخ توأم، والرقم 19 هذا هو رقم له دلالاته في النصّ القرآني ودلالة خاصة عند الكاتب بحيث يجعل يوم 19 من كلّ شهر يوماً متميّزاً عند مسعودة وابنها عديم اللقب، فهو يوم تغلق فيه مسعودة كل شيء، وتخرج الذكور من المنزل، وتجلس بناتها الأبنكار الخمس في السطح في طقس لعله مستوحى من الآية : سأصليه صقر وما أدراك ما صقر لواحدة للبشر، عليها تسعة عشر...

يوصل الكاتب هويّاته، ويذهب به الخيال كلّ مذهب، باستعمال كلّ أشكال التداخل اللغوي في اللغة الواحدة ولهجاتها وحتى في اللغات الأخرى، فالمنامة التي هي في الواقع عاصمة البحرين هي عند الكاتب شيء آخر: هي قرية منسية في الصحراء ولكن اسمها يمكن أن يؤوّل إلى معاني كثيرة ذات صلة حتى بالميثولوجيا الإغريقية، للوصول أخيراً إلى أسطورة نيمى Némée وهو مكان في الأرغوليد Argolide (منطقة جبلية شمالي البيلوبونيز) فيه تقام كلّ سنتين ألعاب لزوس Zeus...

إن توظيف الرواية للنصّ الديني المقدّس وما يتصوره الخيال الشعبي الديني من وقائع مرتبطة به وكذا التوسّع في استعمال كل

(*) أنظر نص المقال كاملاً في القسم الفرنسي من ص 19 - 34